

هَذَا دَسَّةُ الْإِنْسَانِ: دُعَاءُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

حين يفتح المؤمن صفحات "الصحيفة السجادية" ويقف عند "دعاء مكارم الأخلاق" للإمام علي بن الحسين السجاد ، فإنه لا يقف أمام نصِّ عبادي اعتيادي يُقرأ لمجرد تطيب خاطر أو تحصيل الثواب الأُخروي فحسب. إنه يقف، في الحقيقة، أمام أطروحة تربوية معصومة، ومؤسسة إصلاحية متكاملة، ومشروع رباني هندسي لإعادة بناء الإنسان من الداخل إلى الخارج.

إن هذا الدعاء يمثل "الوثيقة الإنسانية الأسمى" التي تُعيد ترتيب علاقات المرء الأربعة: علاقته مع □ (المصدر والغاية)، مع نفسه (الباطن والوجدان)، مع الناس (المجتمع والأمة)، ومع الحياة (الزمن والوجود).

من المؤسف حقاً أن ينحسر تعاملنا مع هذا الكنز في إطار "التبرك اللفظي"، بينما لو تأملناه بعمق لوجدنا فيه خلاصات علم النفس السلوكي، وعلم الاجتماع التربوي، وفلسفة الأخلاق الكونية، مصبوبة في قالب إلهي نوراني اختصر للبشرية طريق البناء النفسي والمعرفي.

ومن المؤلم حقاً أن كثيراً من المؤمنين يعرفون هذا الدعاء اسماً، لكن القليل من يعيش معه مشروعاً للحياة. فربما قرأ بعضنا دعاء مكارم الأخلاق عشرات أو مئات المرات، لكنه لم يقف عنده وقفة المتأمل الذي يبحث عن نفسه بين سطوره، ويقيس أخلاقه بميزانه، ويعرض قلبه على مضامينه. إن بعض الأدعية نقرأها طلباً للحاجات، وبعضها نقرأه للأنس والسكينة، أما دعاء مكارم الأخلاق فهو دعاء لصناعة الإنسان نفسه. إنه دعاء يريد أن يحول الإنسان من نسخة عادية من البشر إلى إنسان رباني يحمل أخلاق السماء في أرض □. ولذلك فإن الغفلة عن هذا الدعاء ليست غفلة عن نص عبادي فحسب، بل قد تكون غفلة عن واحد من أعظم البرامج التربوية التي وصلت إلينا من مدرسة أهل البيت .

أولاً: فلسفة النص المعصوم وعلم النفس الاستشراقي (اقرأه بلسان الإمام)

حين نقرأ دعاء مكارم الأخلاق، يجب أن نستحضر خلفية القائل؛ فنحن لا نتعامل مع تأملات فيلسوف يوناني، ولا خواطر حكيم شرقي، ولا نظريات عالم نفس خاضعة للتجربة والخطأ. نحن نقرأ كلمات الإمام المعصوم الذي يمتلك الرؤية الملكوتية للنفس فيعرف خباياها، منطلقاتها، ومكان خداعها، كما يمتلك التشخيص

الدقيق للمرض والشفاء ويعلم ما يحرك العقل الباطن وما يرسخ العادات السلوكية .

ومن أهم ما ينبغي الالتفات إليه عند قراءة هذا الدعاء أننا لا نقرأ كلماتنا نحن، بل نقرأ كلمات إمام معصوم عرف الحق معرفته:

فحين تقول: (اللهم بلغ بإيماني أكمل الإيمان) فأنت لا تبتكر الطلب من نفسك، بل تتعلم من الإمام السجاد ماذا ينبغي أن تطلب من الله، وماذا ينبغي أن يكون همك الأكبر.

وحين تقول: (واجعل يقيني أفضل اليقين) فإن الإمام يربي ذائقتك الروحية لتفكر باليقين قبل التفكير بالمكاسب، وبصلاح القلب قبل صلاح الدنيا، ويعلمنا أن أعظم ثروة يمتلكها الإنسان ليست المال ولا الجاه، بل اليقين بالله.

وحين تقول: (اللهم صل على محمد وآله، وبلغ بإيماني أكمل الإيمان) فكأن الإمام يأخذ بيدك إلى الله ويعلمك كيف تناجيه، وما هي الأولويات التي تستحق أن تُرفع إلى السماء.

ولهذا فإن قراءة الدعاء بوعي أنه صادر عن معصوم تجعلنا نتعامل مع كل جملة فيه بوصفها درساً تربوياً، وكل فقرة بوصفها خريطة طريق، وكل طلب بوصفه هدفاً ينبغي أن نسعى لتحقيقه في واقعنا، ليتحول الدعاء من مجرد ألفاظ إلى منهج تربوي معصوم.

ثانياً: راديكالية الأخلاق (القمة الشاهقة لا الحد الأدنى)

ينقسم السلوك البشري في التعامل مع الآخرين إلى ثلاثة مستويات:

• دون العدل (الإساءة): وهو ظلم الآخرين.

• العدل (المقابلة بالمثل): "أن لا تظلم ولا تُظلم"، أو أن تحسن لمن أحسن إليك وتجفو من جفاك.

• الفضل ومكارم الأخلاق (الإحسان المطلق): وهو ما يؤسس له الإمام السجاد .

الدعاء لا يطلب من المؤمن أن يكون "إنساناً طيباً مسالماً" في حدوده الدنيا، بل يرسم خارطة الطريق

لما ينبغي أن نصيح عليه وصعود القمة الشاهقة للأخلاق. الأسئلة الاستنكارية التي تصدم النفس عند قراءة الدعاء وتجعل مطالب السلوك تبدو صعبة جداً (كيف أصل من قطعني؟ كيف أعطي من حرمني؟ كيف أحسن إلى من ظلمني؟ كيف أذكر بخير من اغتابني؟) هي مقصودة بذاتها؛ لأن الإمام لا يصف واقعنا الحالي، بل يربي الإنسان على أعلى درجات الإحسان؛ فالعدل أن لا تظلم، أما مكارم الأخلاق فهي أن تحسن حتى لمن ظلمك وتكسر الصنم الذاتي لتخلق في أفق الرحمة الإلهية.

ثالثاً: الدعاء كأداة للمكاشفة والمحاسبة الوجودية (المرآة الباطنية)

إن من أكبر الآفات الروحية والغفلات المهلكة هي "القراءة الآلية" للدعاء لسنوات طويلة دون أن يقرأ الإنسان نفسه أثناء ذلك. دعاء مكارم الأخلاق ليس مجرد كلمات تُلقى في الفضاء، بل هو جهاز رادار مرآتي يكشف عيوب النفس ومحطة محاسبة ذاتية (Audit-Self) تضعك أمام اختبارات عملية دقيقة:

عندما تطلب "أفضل اليقين": يضعك الدعاء في اختبار عملي؛ لتسأل نفسك: ماذا فعلت لأقوي يقيني؟ كم من وقتي أقضيه مع القرآن؟ كم من معرفتي باء ازدادت هذا العام؟ هل خوفي من الناس أكبر من خوفي من الله؟ وهل يضطرب أمانك النفسي وتنهار قواك عند الأزمات الاقتصادية والاجتماعية؟

عندما تطلب "صيانة الوجه باليسار": يختبر الدعاء مدى تمسكك بمبادئك وقيمك، وهل تتنازل عنها من أجل لقمة العيش أو استجداء أصحاب النفوذ، أم تحافظ على عزتك؟

عندما تطلب "معارضة من عش بالنصح": تُمتحن هنا طهارة سريرتك ونقاؤك الداخلي؛ فهل تملك النبيل لتنصح من خانك وخذعك، أم تتشفى في سقوطه وتنتظر لحظة الانتقام؟ هنا فقط يبدأ أثر الدعاء الحقيقي.

رابعاً: رباعية البناء الباطني (مصفوفة التغيير الذاتي)

يبدأ الإمام صياغة الشخصية المؤمنة من خلال أربعة أركان متسلسلة بدقة هندسية تختصر مشروع بناء الإنسان كله من الداخل قبل الخارج، ومن القلب قبل الجوارح:

وفي هذا المخطط تكمن عبقرية التغيير:

• أكمل الإيمان: يمثل "الأصل والرؤية الكونية والمبدأ" (Belief Core The).

• أفضل اليقين: يمثل "القوة والاستقرار العاطفي والذهني" وثبات الفكرة (Conviction The).

• أحسن النية: يمثل "البوصلة الداخلية والدافع" (Motivation The).

• أحسن العمل: يمثل "الثمرة والمخرج النهائي والسلوك الخارجي" (Output The).

الإمام يعلمنا أنه لا يمكن إصلاح السلوك الخارجي (العمل) دون معالجة الجذور الباطنية (النية واليقين)، ومن دون إصلاح هذه الجذور لا يمكن إصلاح بقية الفروع. التنمية البشرية التجارية تحاول تجميل "الأوراق والثمار" (السلوك الظاهري)، بينما الدين المعصوم يسقي "الجذور" (القلب والسريرة).

ومن اللافت أن الإمام لا يبدأ بإصلاح العالم، ولا بإصلاح الناس، ولا حتى بإصلاح الظروف، بل يبدأ بإصلاح الإنسان نفسه. فكثير من الناس يريد مجتمعاً صالحاً دون أن يصلح نفسه، ويريد أسرة متماسكة دون أن يهذب أخلاقه، ويريد عالماً عادلاً دون أن يراجع ظلمه الخفي للآخرين. أما الإمام السجاد فيعلمنا أن كل إصلاح خارجي يبدأ من الداخل، وأن أعظم الثورات هي الثورة على النفس الأمارة بالسوء. فإذا صلح القلب استقامت الجوارح، وإذا استقامت الجوارح صلح البيت، وإذا صلح البيت صلح المجتمع.

خامساً: سيكولوجية التواضع وعلاج "الأنا المتضخمة" (Narcissism)

من أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان وتتعلق بصورة ذاته وشعوره بالتفوق على الآخرين هو العجب، والكبر، وحب المدح. وفي عصر يقدر "البراند الشخصي" (Branding Personal) ويدفع الإنسان نحو النرجسية واستعراض الذات، يأتي الإمام السجاد بـ مصطلح نفسي مضاد للتكبر ومحاسبة النفس:

"أعزني ولا تبتليني بالكبر، وعبدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب"

"ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها"

وكان الإمام يضع قانوناً عظيماً ومعادلة رياضية روحية تقرر: (كلما زاد الصعود الخارجي والاجتماعي وثنائهم عليك، وجب أن يقابله نزول وتواضع داخلي ومحاسبة للنفس، وكلما كبر اسمك في المجتمع، صغر نفسك بين يدي ربك). إنها عملية موازنة تمنع "انفجار الأنا" بفعل مديح الناس وثنائهم. الإمام يربط العزة بـ (الحقيقية) وينفي الكبر (الوهمي)، لأن الكبر يفسد العقل ويحجب البصيرة عن رؤية الحقائق.

سادساً: استثمار الوجود وإدارة العمر في عصر "تشتت الانتباه"

عندما يقف الإنسان أمام سؤال مصيري حول في ماذا تذهب أيامه، يدعو الإمام: "واستفرغ أيامي فيما خلقتني له"، فإنه يضع يده على أثن من ما يملكه الإنسان وهو الوقت وعمر الإنسان (الرأس مال الوجودي) الذي يضيع كثير منه في التوافه والنزاعات والمقارنات والحسد والقلق. في عصرنا الحالي، نواجه معركة ضارية تسمى "اقتصاد الانتباه" (Economy Attention)، حيث تتنافس شركات التكنولوجيا العملاقة لسرقة دقائق ولحظات عمر الإنسان عبر الشاشات، والإدمان الرقمي، والتصفح اللانهائي بلا هدف، والجدل العقيم، وتتبع أخبار الناس. إن أخطر خسارة في الحياة ليست خسارة المال الذي يمكن تعويضه، بل خسارة العمر والدقيقة التي تمضي ولن تعود أبداً، ولهذا فإن الدعاء علاج حي لأعراض العصر.

ثم يأتي الميزان الصادم في عبارة تهز القلب من الدعاء: "فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك". إنها ثقافة تقديس جودة الحياة ومضمونها لا طولها الرقمي؛ فالقضية ليست كم سنة عشت بل كيف عشت وكم اقتربت من الله وأصلحت من نفسك ونفعت عباده. فالعمر في المنظور السجادي الذي يقود إلى الله نعمة، أما العمر الذي يبعد عن الله فمصيبة مهما طال.

سابعاً: الهندسة الاجتماعية وثورة العلاقات الإنسانية

يصل الدعاء إلى ذروته الأخلاقية والاجتماعية عندما يسرد أسلوب التعامل مع الوسط الاجتماعي في حالات الأزمات والخلافات وتصل الأخلاق فيه إلى ذروة أخلاق الأنبياء والأولياء بدلاً من رد الإساءة بمثلها أو كفاً الأذى:

- صلة من قطع: كسر جدار الجفاء والمبادرة بالوصل لصلة من قطعنا.
- إعطاء من حرم: التسامي فوق الشح النفسي وإعطاء من حرمنا.
- العفو عن ظلم: تحرير الذات من ثقل الحقد ورغبة الانتقام والعفو عن ظلمنا.
- النصح لمن غش: تقديم الخير والنصح لمن غشنا وتآمر علينا.
- ذكر من اغتاب بالخير: مقابلة الاغتياب المعنوي بالذكر الطيب.

لماذا يصعب هذا علينا؟ لأن النفس تحب الانتقام ورد الصاع صاعين وإثبات ذاتها. أما الإمام فيريد تحرير الإنسان من عبودية ردود الأفعال، ليكون إنساناً "قائداً لنفسه" (Proactive) وصاحب قرار ورسالة، يمتلك سيادة تامة على مشاعره ولا يسمح لتدني أخلاق الآخرين أن يلوث نقاء روحه، بدلاً من أن يكون أسيراً انفعالياً لمشاعر الغضب والانتقام.

ولو تأملنا واقعنا المعاصر لوجدنا أن كثيراً من المشكلات الأسرية والاجتماعية والإعلامية ما هي إلا نتيجة مباشرة لفقدان هذه الأخلاق السجادية. فالخصومات التي تستمر سنوات، والقطيعة بين الأرحام، والحملات المتبادلة في وسائل التواصل، والتشفي بأخطاء الآخرين، كلها كانت ستذوب لو أن الناس جعلوا من دعاء مكارم الأخلاق منهجاً عملياً لا مجرد نص يُتلى. إن العالم اليوم يملك وسائل اتصال مذهلة، لكنه يفتقر إلى أخلاق التواصل. ويمتلك وفرة في المعلومات، لكنه يعاني فقراً في الحكمة. ويمتلك تقدماً تقنياً هائلاً، لكنه ما زال يبحث عن السكينة التي يمنحها هذا الدعاء في صفحات معدودة.

ثامناً: صناعة المجتمع المدني الصالح والمصلح

بناء المجتمع الصالح يبدأ من الفرد الصالح، ودعاء مكارم الأخلاق لا يهدف إلى صناعة "فرد منعزل" ينعزل عن مجتمعه ليتعبد، بل يصنع إنساناً مصلحاً وعنصراً فعالاً في السلم الأهلي والاجتماعي. الإمام يطلب من □ القدرة على:

• بسط العدل: كقيمة عليا تحكم التعاملات وإفشاء المعروف.

• كظم الغيظ وإطفاء نار الفتنة: لمنع النزاعات العشائرية والاجتماعية وإصلاح ذات البين.

• ضم أهل الفرقة وجمعهم: لترميم التصدعات في بنية المجتمع.

المؤمن بناءً على هذا الدستور هو "مصدر أمان ورحمة وإصلاح" للمجتمع أينما حل، كالغيث تماماً. ستر العيوب، لين الجانب، حسن المعاشرة، وطيب السيرة، كلها أدوات لصناعة شبكة أمان اجتماعي تمنع تفكك الأمة.

تاسعاً: تهذيب القلب قبل تهذيب اللسان وإسقاطه في زمن وسائل التواصل

كثير من الناس يحاول إصلاح كلامه فحسب، لكن الإمام يبدأ من القلب لأن اللسان يترجم ما في الداخل؛ فإذا صلح القلب صلح اللسان. ولهذا يطلب تحويل الحسد إلى صفاء، والضغينة إلى رحمة، والغضب إلى حلم، والقسوة إلى رأفة، ثم ينتقل إلى اللسان: "فاجعله نطقاً بالحمد لك"، أي أن المطلوب ليس فقط ترك الحرام بل ملء اللسان بالخير.

وفي زمن وسائل التواصل الاجتماعي اليوم لم تعد الغيبة والنميمة والجدل العقيم مقتصرة على المجالس الضيقة العابرة، بل قد تكون في تعليق، أو إعادة نشر، أو سخرية، أو تلميح في صورة ومقطع قصير عابر للقارات بنقرة زر؛ ولهذا فإن هذا الدعاء أصبح أشد حاجةً في عصرنا من أي وقت مضى لتطهير السلوك الرقمي والواقعي على حد سواء.

العاشر: فقه الكرامة والرزق المسؤول

لم يغفل الإمام السجاد عن الجانب المادي المعيشي للإنسان وحاجاته الحياتية، فالأخلاق لا تكتمل في بيئة يسحقها الفقر والذل والاحتياج غير المصان. يقول: "صن وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار".

هذا الفهم العميق يوضح أن:

• المال واليسار المادي: وسيلة لحفظ الكرامة الإنسانية (صيانة الوجه)، وتجنب المرء ذل السؤال وصون عزته.

• الفقر المدقع (الإقتار): قد يؤدي بالمرء إلى ابتذال جاهه ونفسه واستجداء الآخرين، ومراقبة عطاياهم، والوقوع في فخ المدح والذم العبثي للبشر، والمال إن قرب إلى الله كان نعمة وإن أبعد عنه كان فتنة.

إنها دعوة للاتزان المالي القائم على العزة، والعمل الذي يغني الإنسان عن ذل السؤال، ليبقى قراره الأخلاقي حراً ومستقلاً.

الحادي عشر: التوكل الوجودي المطلق (الله أولاً وآخرًا)

في نهاية المطاف، يربط الدعاء كل هذه التفاصيل الأخلاقية والنفسية بمصدرها الأصيل: التوحيد الخالص والتوكل الحقيقي. الدعاء يعلمنا أن المؤمن لا يتعلق بالأسباب أكثر من تعلقه بمسبب الأسباب؛ ففي الشدة والفقر والخوف والمرض والحيرة في كل أبواب الحياة نجد: ا] أولاً وآخراً.

يقول تعالى: ا] لا إِنْ أَوَّلَيْتَ اللَّاهُ لَاحَوْفُ عَلايْهِمْ وَلا هُمْ بِحَزَنُونا [سورة يونس: 62].

يُروى عن أمير المؤمنين الإمام عليّ : أصل قوّة القلب التّوكّل على ا].

من عرف ا] واعتمد عليه حقاً، امتلأ قلبه بـ "الأمن النفسي المطلق"، ولم يشعر أنه وحيد مهما اشتدت عليه الظروف وظلمت الدنيا، مما يمنحه شجاعة الوقوف مع الحق، والصلابة أمام عواصف الحياة ومحنها.

الثاني عشر: لماذا ينبغي أن يكون هذا الدعاء رفيقنا الدائم؟

لأن الإنسان يتغير باستمرار، والنفس تضعف، والدنيا تفتن، والشيطان لا يملأ؛ فنحن لا نحتاج هذا الدعاء مرة واحدة بل نحتاجه طوال العمر، ونعود إليه كلما ضعفت هممتنا، وقست قلوبنا، وكثرت أخطاؤنا، واختلطت علينا الأولويات، وشعرنا أننا ابتعدنا عن ا].

ومن المؤسف حقاً أن بعضنا قد يختم كتباً كثيرة، ويتابع عشرات المحاضرات والدورات، وربما يقرأ مئات المقالات، لكنه لا يمنح هذا الدعاء العظيم دقائق من التأمل الصادق. بينما هذا الدعاء لو عاشه الإنسان بحق، لكان مدرسةً كاملةً في تزكية النفس وبناء الشخصية وإصلاح العلاقات وصناعة السعادة الحقيقية؛ إنه ليس دعاءً يُقرأ عند الحاجة فقط، ولا نصاً يُتلى في المناسبات فحسب، بل منهج حياة متكامل.

ختاماً: دعاء مكارم الأخلاق... مشروع عمر لا ورد يوم

إن الخطأ الكبير أن نتعامل مع هذا الدعاء على أنه ورد يُقرأ ثم يُطوى. فدعاء مكارم الأخلاق ليس مجرد كلمات نتعبد بتلاوتها، بل مدرسة متكاملة نتربى على يدها، ومرآة نكتشف بها عيوبنا، وخارطة طريق نسير على هديها نحو ا]. وكلما ازداد الإنسان عمراً ازداد احتياجاً لهذا الدعاء؛ لأن معارك النفس لا تنتهي، وفتن الدنيا لا تتوقف، والقلب يحتاج دائماً إلى من يعيد توجيهه نحو السماء.

فليكن لهذا الدعاء نصيب ثابت من أيامنا، لا على مستوى القراءة فحسب، بل على مستوى التأمل والمراجعة والتطبيق. وليسأل كل واحد منا نفسه بعد كل قراءة:

هل ازداد يقيني؟

هل تحسنت نيتي؟

هل رقى قلبي للناس؟

هل اقتربت من العفو؟

هل قلّ تعلقي بالدنيا؟

هل أصبحت أقرب إلى الله؟

فإن كانت الإجابة نعم، فقد بدأ الدعاء يؤدي رسالته فينا.

لو لم يصل إلينا من تراث الإمام السجاد إلا دعاء مكارم الأخلاق، لكفى به أن يكون جامعةً روحية وأخلاقية متكاملة تصنع إيماناً أعمق، ويقينا أقوى، وقلباً أنقى، ولساناً أظهر، وعلاقاتٍ أرقى، ومجتمعاً أصح، وروحاً أقرب إلى الله. فطوبى لمن جعل هذا الدعاء جليسا دائماً له، يقرؤه بلسان الإمام السجاد، ويتدبره بعقله، ويعيشه بقلبه، ويحاسب نفسه على ضوئه، ويتعامل معه على أنه دستور يومي لصناعة الإنسان الذي يريده الله، لا مجرد كلمات تُتلى طلباً للثواب.

وحينها سيكتشف المؤمن أن الإمام السجاد لم يترك لنا دعاءً فحسب، بل ترك لنا خريطة طريق إلى الله، ومشروعاً متكاملًا لبناء النفس، ومنهجاً عملياً لصناعة الإنسان الصالح الذي يأنس به الناس، وتحبه السماء، وتطمئن به نفسه، ويفوز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. وما أجمل أن نختم بالقول: إن الصحيفة السجادية ليست كتاب أدعية فحسب، بل مدرسة لصناعة الإنسان، ودعاء مكارم الأخلاق هو تاج هذه المدرسة، ودستورها التربوي الخالد. فمن أراد أن يعرف كيف يفكر المؤمن الكامل، وكيف يحب، وكيف يعفو، وكيف يتواضع، وكيف يبني نفسه ومجتمعه، فليجالس هذا الدعاء طويلاً؛ فإنه كلمات خرجت من قلب إمام معصوم، وما خرج من قلوب أولياء الله لا يحيي الأرواح فحسب، بل يصنع الحضارات ويغير مصائر البشر. والحمد لله رب

